

عندما تقاتل الروح



الشيخ موسى خشّاب

إنَّ إِعْدَادَ الْقُوَّةِ شَرْطٌ أَسَاسِيٌّ مِنْ شَرْطِ الْجَهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: 60).

وي ينبغي أن تشمل عملية الإعداد كل عناصر القوة على مستوى التدريب والسلاح والمعلومات والتجهيزات والدعم المادي والإعلامي والاحتضان الشعبي وغير ذلك مما أمرنا الله تعالى بالاهتمام به كونه يساهم في تحقيق النصر. والسؤال الأساس: ما هو الجانب الذي يجب أن يحظى بالاهتمام الأكبر على مستوى الإعداد؟ هل هو السلاح المتطوّر، أم التخطيط الدقيق، أم القاعدة الشعبية، أم القاعدة البدنية التي تؤمن بـ التأييد والاحتضان والدعم؟

يمكن أن نأخذ الجواب من كلام الشهيد القائد الحاج عماد مغنية، والذي قاله بعد انتصار عام 2000م:

"إنَّ الإِمْكَانَاتِ أَصْلُ، الْبِرَامِجُ أَصْلُ، التَّكْتِيكُ أَصْلُ، صِياغَةُ الْأَهْدَافِ أَصْلُ... لَكِنَّ الْأَصْلَ الرَّئِيسَ هُوَ الرُّوحِيَّةُ وَالرُّوحُ. الْجَانِبُ الَّذِي يُقَاتِلُ وَيُجَاهِدُ فِينَا، هُوَ الرُّوحِيَّةُ، فَالرُّوحُ [المرتبطة بذات الباري سبحانه وتعالى] هُوَ الَّتِي تُقاَتِلُ".

على هذا الأساس يجب أن ينال الارتباط باً تعالى الحظُّ الأوفر في عملية إعداد النفس. فمن أراد أن يبني روحه بشكل صحيح، عليه أن يبني الإيمان في نفسه. وهذا هو الفرق الجوهرى بين روحية المقاتل المؤمن وغير المؤمن. وينعكس هذا الفرق على مستويين:

* الأول: السلوك المنضبط

فالقاتل المؤمن يظهر ارتباطه باً تعالى في جميع حركاته وسكناته؛ لأنَّه يتصرُّف على أساس عبوديَّته [تعالى] في حين يتصرُّف الآخرون كجهاز في الأرض. والمقاتل المؤمن ينسجم ويتكمel مع حركة الأنبياء التي تهدف إلى الإصلاح، في حين تدَّسم حركة الآخرين بالعلو والفساد. قال تعالى: [تَرَأَكَ الدَّارُ اَلَّاَخِرَةُ نَاجِعَتُهَا لِتَذَرَّعَنَّ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي اُلَّارْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِتَمُتَّقِيَّنَ] (القصص: 83). ويمكن الحديث عن أربعة عناوين يتميَّز بها المقاتلون المرتبطون باً تعالى عن غيرهم، وهي:

1- احترام الأوامر الإلهيَّة والتزامها: فلا يرتكبون المحرَّمات التي يُبتلى بها المقاتلون عادة؛ كالتعدي على الآخرين وممتلكاتهم، وما يصدر عنهم في حالة الغضب كالتمثيل بالجثث وأذية الأسرى، أو في حالة الفرح، بإطلاق النار ابتهاجاً. عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام: "إِنَّمَا المؤمن الذي إذا غضب، لم يخرجه غضبه من حقٍّ، وإذا رضي، لم يدخله رضاه في باطل" (1).

2- احترام الآخرين: من المشاكل التي تعاني منها المجتمعات والأسر، أنَّ المقاتل ينقل قسوته وشدَّته من المعركة إلى المجتمع وإلى البيت، فيعتدي على جيرانه وحقوقهم وعلى زوجته وأولاده بالضرب أو

الصراخ و... في حين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِذْ هُوَةٌ﴾ (الحجرات: 10)، ويصفهم في ساحة القتال بأنّهم: ﴿كَأَنَّهُمْ بُذْلَيَّانٌ مَرْصُوصُونَ﴾ (الحجرات: 4)، ويصف شعارهم في التعامل ﴿رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: 29).

3- احترام الذات: ومنها المروءة، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: "المروءة اجتناب الرجل ما يشينه، واختياره ما يزيشه" (2). فالمؤمن مثلاً يتّصف بالعفة، فلا يحطّ من قدر نفسه طلباً لشهوة مال أو طعام "من كرمت عليه نفسه، هانت عليه شهواته" (3)، ويتصف بالحياء، فلا يتكلّم بكلام لا يليق بقدرها: "إِنَّ اللَّهَ حَرَمَ الْجَنَّةَ عَلَىٰ كُلِّ فَحَّاشٍ بَذِيءٍ قَلِيلٍ الْجَنَّاءِ، لَا يُبَالِي مَا قَالَ وَلَا مَا قَبِيلَ لَهُ" (4).

4- احترام البيئة: بحيث لا يقطع الشجر، ولا يهدم الدور، ولا يعتدي على الممتلكات والمزروعات وغير ذلك.

* الثاني: القدرة المضاعفة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ الْفِتَنَالِ إِنَّمَا يَكُونُ مَنْدُكُمْ عَشْرُونَ صَاحِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَةَ بِلْ وَإِنَّمَا يَكُونُ مَنْدُكُمْ مَئَةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الْأَذْدِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأفال: 65). فكلاً ما كان ارتباط المقاتلين المجاهدين بما تعلّى أشدّ وأقوى، تتضاعف قوّتهم، والعكس صحيح.

فالمؤمنون، بحسب الآية الكريمة، يتميّزون بأمور عدّة، منها: الصبر، بمعنى أنّ قدرتهم على تحمل المصاعب والضغوطات التي تواجه المقاتل عادةً أكبر. وفي حين تؤدي هذه الضغوطات إلى حدوث حالات فرار كثيرة أو إلى رفض العمل العسكريّ، كما يحدث في جيش العدوّ الصهيونيّ (5)، إلا أنّنا نجد المجاهد المؤمن يتحمل تلك الضغوطات كلّها، ويصبر عليها؛ بسبب قوّته المضاعفة الناتجة عن الإيمان.

يمكن تقرير الفكرة وبالتالي: إنَّ غير المؤمن قد يمتلك سهماً رابحاً، في حين يمتلك المؤمن أسهماً رابحة عدّة.

فالأول: يؤمن بالقوانين الماديَّة ويستفيد منها.

والثاني: يستفيد من القوانين الماديَّة والغيبية معاً.

مثلاً: إنَّ المقاتلين لديهم أحاسيس ومشاعر ورغبات ومخاوف، ويقعون تحت ضغوطات من قبيل:

1- الشوق: فالقاتل يشتق إلى الوطن والأهل والأولاد وإلى الراحة والرفاهية و...

2- الخوف: كالخوف من شدَّة المعارك والتعرُّض إلى الإصابة أو الأسر أو الموت.

ولكنَّ الفرق بين المؤمن وغيره هو أنَّ المؤمن يدفع الشوق والخوف بشوقٍ وخوفٍ أكبر منهما. ولهذا، فهو يتحمّل الضغوطات ويستطيع خشونة العيش. فهو يشتق إلى وطنه وأهله وأولاده، ولكنَّ شوقه إلى رضى الله أكبر. وهو يحذر نيران العدو وسطوته، ولكنه ثابت في الميدان؛ لأنَّ حذره من نار الآخرة والبعد عن الله أعظم.

وفي الوقت الذي يخاف فيه مقاتلو العدو من الموت، فإنَّ المؤمن يشتق إلى لقاء الله، ولا يبالي أَوْقع على الموت أم وقع الموت عليه.

* كيف ننمي الشوق والخوف؟

إنَّ القرآن الكريم من جهة، والرسول وآل بيته عليهم السلام من جهة أخرى، هما النيران اللذان يغذِّيان الإيمان. وإليكم هذين المثالين:

1- القرآن الكريم: يشوق ويهُوّف

إن من آثار العلاقة بالقرآن الكريم أنّها تنمو في القلب الشوق للجدّة والخوف من النار؛ وبذلك يكون المقاتل قادر على دفع الشوق والخوف الدنيويين بشوقٍ وخوفٍ إلهيّين. وهذه الآثار تحصل في القلب عند قراءة القرآن قراءةً واعيةً وهادفةً ومخلصةً، فقد قال الإمام عليٌ عليه السلام في وصف المتدينين: "فَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَطَنَدُوا أَزْهَارًا نُصْبَأَ أَعْيُنَهُمْ، وَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَحْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبَهُمْ، وَطَنَدُوا أَنَّ رَفِيرَ حَهَنَّمَ وَشَهَرَيْقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ" (6).

2- سيرة أهل البيت عليهم السلام في التعامل مع الموت

إن سيرة أهل البيت عليهم السلام ومواهمهم ورواياتهم تؤثر تأثيراً عميقاً في النفس، وتشعل في القلب جذوة العشق والحب لهم. ومن آثار الحب الصادق الارتباء؛ حتى يصبح المحب شبيهاً بحبيبه. فمن يعيش عليهما عليه السلام ويدرك أنه أشد استئناساً بالموت من الطفل بثدي أمّه، وأنّ ألف ضربة بالسيف أحبّ إليه من ميتة على الفراش، وأنّ الدنيا بنظره حيفة، فلن يكون منكبّاً على الدنيا ولن يخاف الموت. وهذا في حد ذاته سرّ من أسرار القوّة التي يتمتع بها أتباع أهل البيت عليهم السلام الحقيقيون.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "منهاج الشهادة القاني، منهاج آل محمد صلى الله عليه وآلها وسلم وعلى عليه السلام. ولقد انتقل هذا الفخر من آل بيت النبوة والولاية إلى ذراريهم وأتباع منهاجهم" (7).

1- الواقي، الفيض الكاشاني، ج 4، ص 161.

2- موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، النجفي، ج 10 ص 218.

3- نهج البلاغة، قصار الحكم، ج 4، ص 104.

4- الواقي، (م.س)، الفيض الكاشاني، ج 5، ص 935.

5- مما دفعه إلى معالجة هذه الحالات من خلال عقوبة السجن في حين تلجم بعض الجيوش والحركات المتطرفة إلى قتل الفارين من أرض المعركة منعاً لفرار الباقيين.

6- نهج البلاغة، خطبة المتقيين، ج 2، ص 162.

7- صحيفة الإمام، ج 15، ص 154.

المصدر: مجلة بقية الـ